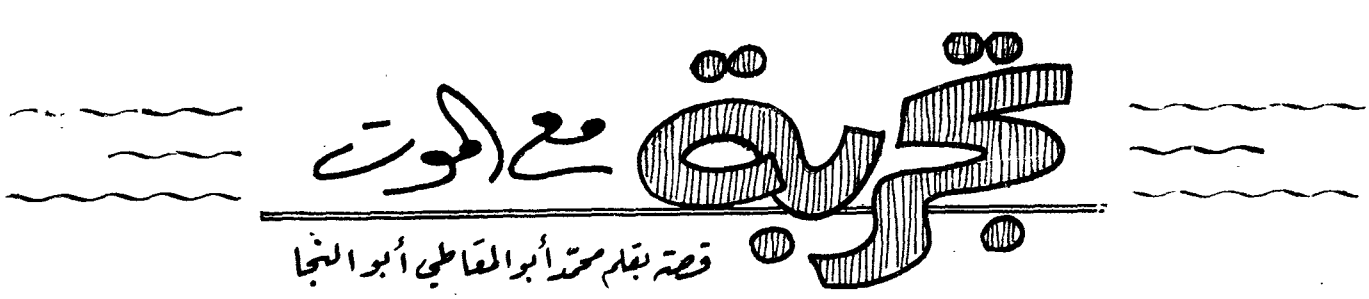

تجربة مع الموت

قصة بقلم محمد أبو المعاطي أبو النجا

(الى أرواح شهداء معركة بور سعيد)

« هناك في الحياة اشياء كثيرة يمكن ان نحددها وان نؤكد موقفنا حيالها. فبمقدور انسان ما أن يرفض ثروة مفاجئة او يضع حدا لقصة حب او ينفق جزءا من حياته عبدا لفكرة او شخص . ولكننا حيال تجربة واحدة . تلك هي التجربة التي نواجه فيها الموت بنوع من الاختيار لا يمكننا ان نحدد شيئا او ان نؤكد موقفا ، لان المشاعر والافكار تنبعث من داخل التجربة وتتحدد بشكل نعجز حتى عن ان نحدس به ونتساءل دائما ونحن داخل التجربة وحتى بعد ان نخرج منها كيف كان ذلك ، واحيانا قد لا نظفر بجواب . »

كانا يتحدثان ، وقد افترشا قطعة كبيرة من المشمع ، وفك كل منهما بندقيته الى اجزاء يسهل تنظيفها ، وبينهما جردل صغير مليء بالكاز ، يغمسان فيه بين لحظة واخرى قطعة القماش التي تستعمل في التنظيف . وفوق الارض الرملية التي جلسا عليها كان يمتد ظلان يحجب احدهما مساحة من الارض اوسع مما يحجب الآخر ، وبينما تبدو المساحة الكبرى هادئة تميل الى الاستقرار كانت المساحة الاخرى تبدو متحركة لا تكاد تستقر ...

كنت انا صاحب الظل النحيف المتحرك .. وفي اللحظات التي كان ينقطع فيها الحديث مع صديقي ، كنت أعدو بخيالي الى ارض المعركة التي سنخوضها بعد ايام ضد الاعداء. كنت اجد لذة غريبة في تلك الصور التي يرسمها خيالي للمعركة التي سنصفي فيها حسابنا مع اسرائيل . على انني اكون اقرب الى الحقيقة اذا ما قلت ان هذا الاحساس السار لم يكن هو ما شعرت به في البداية ، اعني في صباح الاربعاء الذي ذهبت فيه الى الكلية لأجد فوق لوحتها الاخبارية تلك العبارة : « قف فالوطن يناديك . بادر بالتطوع . التخلي عن المسؤولية جريمة » لقد احسست وقتها انه ليست قدماي وحدهما اللتان توقفتا وانما كل حياتي ، كل مشاريعي للمستقبل ، كل ذلك قد توقف واستدار الى ناحية اخرى يكمن خلفها المجهول ، وغمرني شعور رهيب بالقلق .. ثم لم يلبث ذلك المجهول ان تكشف عن معسكر بمدينة بور سعيد يموج بمئات من الشبان وبملابس صفراء وبنادق واصوات آمرة ووجوه تضحك في صلابة وانا وصديقي صبري .

وفي لحظات الراحة كنت اجلس مع صبري ننظف البنادق ونثرثر . اما في فترات الصمت التي قد تتخلل الحديث ، فقد كنت اقفز بخيالي الى ارض المعركة . لم أكن قد شهدت حربا من قبل.. كنت اتصور نفسي ازحف في الرمل ويداي مشدودتان على البندقية ، وعيناي تخترقان الظلام ، وأصوات الرصاص تمزق السكون حولي ، وانا اعوق زحف الاعداء ، واحيانا كنت اتمادى في الخيال فأتصور ان رصاصة اصابتني وأنني بدأت أحس دمائي تنزف وتصبغ ثيابي وخواطري بلون احمر . ومع ذلك فقد كنت استمر في اطلاق الرصاصات . فالرصاص يعوق زحف الاعداء حتى ولو كان الذي يطلقه يطلق معه آخر أنفاسه . كنت اجد لهذه الصورة الاليمة جمالا خاصا ، واحس فيها لونا من النبل لا يوصف . ولم تكن هذه الصور تفارق خيالي في لحظات الصمت العارضة خلال أي حديث .. كنت أتمنى ان افرغ من التدريب حتى احمل بندقيتي واخرج لأوقف زحف العدو ، ولكن الاحداث كانت تتطور بأسرع مما كنت اتصور . لقد حملت الانباء اول بلاغ حربي عن اشتراك انكلترا وفرنسا في المعركة ضد مصر . ولم يغير النبأ كثيرا من موقفي حيال الصورة التي كنت لا أزال أعيش في جوها الغريب . وقلت لنفسي : ماذا تتغير في الموقف حين يشترك كل هؤلاء الاعداء ؟ لا شيء . فاذا كانت قصة المأساة ان يموت الانسان فان الموت لا يختلف – حين يقاتل ضد دولة او عدة دول لا يهم ، ما دام الموت نفسه لم يعد امرا مخيفا ! الحق انني حتى تلك اللحظة لم اكن قد خضت تجربة مع الموت ، لم اكن قد رأيت ظله على وجه انسان .. ولكن الذي كنت اعرفه تماما ان علينا ان نقاتل ما دام الاعداء قد وضعوا قضية حياتنا في هذا المستوى الذي يفقد فيه الاختيار كل معناه .. كأن الموت لا يزال يبدو دائما في تلك الصورة التي لا تخلو من سحر ومن خواطر تتناسب مع الدماء النازفة .. وعيون تمتص في نهم وقبل ان تغمض كل جمال الحياة ..

– سنقاتل ، اليس كذلك يا صديقي صبري ؟ سنقاتل الى آخر قطرة من دمائنا .

نطقت بهذه العبارة دون ان أرفع رأسي عن أجزاء البندقية المبعثرة أمامي ، ودون ان أرفع رأسي ايضا سمعت صوت صبري :

– لن نكون وحدنا يا عزيزي .. سيقاتل معنا كل الاحرار في العالم .

ويضحك صبري وهو يقول :

– ان تقدم وسائل المواصلات في العالم هو الذي سينقذنا . لا تضحك فبدون تقدم هذه الوسائل كان من الممكن ان تستبد الدول الكبرى بالشعوب الصغيرة كما كانت تفعل في الماضي . ان المواصلات لا تنقل فقط البضائع ولكنها تنقل ايضا الافكار . ان الافكار التي تدافع عن السلام وعن حرية الشعوب الصغيرة هي التي سوف تساعدنا ، لان هذه الافكار توجد داخل رؤوس ، وحين تتحرك هذه الافكار تتحرك معها هذه

الرؤوس . أفهمت ؟ انا لا اخاف لهذا السبب . اننا لن نقاتل كل هؤلاء الاعداء وحدنا .

كنت أعرف أفكار صديقي جيدا ، والحق اني كنت اختلف عنه كثيرا .. كان يعرف جيدا وقائع التاريخ وحقائق الجغرافيا، ويلذ له دائما ان يتحدث عن جدوى تقدم المواصلات في العالم ، الشيء الذي لم اكن اطيق الاستماع اليه كثيرا . كنت أحب الادب وأتذوق كل ما في الحياة من شعر . وكنت احب أيضا صديقي صبري . كانت علاقتي به حصيلة عشرة اعوام من الزمالة الطويلة في المدرسة والكلية والبيت والشارع . وكان صبري في تلك اللحظة ينظف ماسورة البندقية وقد انكفأ برأسه الى الامام فغطى شعره اعلى جبهته وبدت اصابعه الغليظة وهي تقبض في صلابة على البندقية .. ورفع صبري رأسه فبدا وجهه الممتلىء يتألق بنظرة جادة صارمة ، وقال

ـ اسمع .. سأقول لك شيئا .. انا سعيد بهذه الحرب لا تدهش . نحن شعب في حاجة الى ان نخوض هذه التجربة . هذا ما كان ينقصنا منذ زمن بعيد .. ان الشخص الذي يحمل البندقية ويأتي الى هنا ليواجه الموت يتبدل شخصا آخر تماما .. ان حياتنا في هذه البقعة من العالم يقتلها ذلك الطابع العجيب : طابع الهدوء والامن والرتابة . ان كل شيء هنا هادىء ، الطبيعة والارض والناس .. تصور انت طريقة مواجهتنا للمشكلات ، اعني انت وانا . هل تذكر نوع المشكلات التي كانت تؤرق حياتنا في الاشهر الماضية ؟ تأملها الآن : هل تساوي واحدة منها ان تفقد حياتك ؟ ان وزنها يخف يا صديقي ، اننا حين نواجه الموت نعيد تقديرنا للاشياء والناس وغالبا ما نكتشف ان مخاوفنا الماضية لم تكن تليق ابدا بكبريائنا البشرية ، تلك التي لا نكتشفها الا في تلك المواجهة . اننا هنا نكتشف امكانياتنا . ان الذين يعودون من الحرب غالبا ما يبدأون حياة جديدة ، حياة يشعرون انهم كسبوها من الموت بعرقهم وانها ليست منحة، لذلك فانهم غالبا ما يشعرون بقيمتها . اننا يجب ان نكتشف قيمة حياتنا من خلال هذه التجربة ، ان ...

ولم يتم صديقي حديثه فقد انطلقت صفارة الانذار تعلن عن بدء غارة جوية ، ولم نكن قد أعدنا تركيب البندقية ، وهممت بالتحرك للجوء الى المخبأ القريب .. وهمس صديقي :

ـ لا تخف .. سوف اعيد تركيب البندقية بسرعة .. ان هذه الغارة في طريقها الى القاهرة . ان دورنا لم يأت بعد .. ثم ان الغارات قد اصبحت شيئا طبيعيا لا يجب ان يقطع مثل هذا الحديث .

كان صديقي يعمل بسرعة لانهاء تركيب البندقية .. اما انا فقد كنت أرقب هدوءه بغيظ وصمت .. « دعها يا اخي ، سوف نعود بعد انتهاء الغارة . » وقبل ان اتم عبارتي كنت اهرول نحو المخبأ ، كنت جبانا اذ ذاك، لست ادري فقد خيل الي ان عيني صديقي كانتا تقولان ذلك حين التفت اليه لاطالبه مرة اخرى بأن يسرع قبل ان اغيب في المخبأ

لا زلت اذكر كل شيء . فقد بدأ يختلط صوت الطائرات المغيرة بطلقات مدافعنا المضادة . وبدا واضحا ان بور سعيد هي المقصودة في هذه المرة .. كانت طلقات المدافع تشتد ودوي الطائرات يقترب ، وعيناي مثبتتان فوق مدخل المخبأ في انتظار صديقي . وفجأة دوى صوت انفجار هائل ، وللحظات لم اكن اشعر بشيء . كانت الانفجارات تتابع وكنت عاجزا عن وعي الموقف . لقد تصلبت يداي فوق الكتف المجاورة لي وتحولت الى شيء .. شيء ممكن ان يشعر به أي كائن سواي .

ومرت لحظات رهيبة كنت خلالها قطعة من الرعب. وظلت عيناي مغلقتين، بيد انني لا زلت اذكر شيئا .. اذكر ان اول ما رأيت حين اغمضت عيني كان صديقي وهو يحاول ان يعيد تركيب البندقية .. لماذا لم يعد ؟ لعله عاد . ولم اجرؤ على فتح عيني حتى لااتأكد من ان صديقي لا يزال في الخارج .. كانت الانفجارات لا تزال تتابع ، وكنت في كل لحظة اتحسس الكتف المجاورة لي وبدأت أحس ان ارض المخبأ صلبة تحت قدمي وانها لن تسمح لنا ابدا بأن نختبىء في داخلها اكثر .. ولم اعد اشعر بالزمن فقد كنت اكتشف باستمرار انني لا ازال حيا لا ادري كيف مر بنا الزمن. فحين اطلقت صفارة الامان تعلن انتهاء الغارة احسست كأنني اوشك ان اسقط في هوة عميقة . لقد كنت قبل لحظة احس بأنني تحولت الى جزء من هذه الكتلة البشرية التي جمدها الخوف . وحين انتهت الغارة بدأت هذه الكتلة تنحل الى افراد يغادرون المخبأ ، اما انا فبدأت اتهاوى فوق الارض . وخلا المكان ولم اجرؤ على الخروج .. لقد تذكرت صديقي ولم اكن في حاجة الى ان استنتج انه بقي في الخارج ، وكنت ابصر الاشياء خارج المخبأ في وجوه رفاقي الذين خرجوا ..

لا يمكن ابدا ان انسى هذه اللحظة ، ولا هذه الوجوه . كان احساسي بالعار والخجل اعظم من ان يذوب في احساسي بأنني لا أزال حيا . ربما كان هذا هو الذي دفعني لكي اخرج في النهاية ، لكي أتعذب برؤية الاشياء في الخارج . وجررت قدمي . ولاول وهلة لم اتمكن من رؤية شيء في وضوح ، لقد غرقت في طوفان من الاشياء المختلطة . « حذار من القنابل التي لم تنفجر ... هناك طريق من الناحية الاخرى . لقد نسف خرطوم المياه في المعسكر ، المطافيء في الطريق ...» وشيئا فشيئا بدأت ادرك الاشياء في وضوح ... بدأ الطوفان ينحسر . وكان اول ما انطبع في نفسي انني في مكان آخر غير الذي كنت فيه قبيل الغارة . كانت معالم المكان قد تغيرت تماما وتحولت ارض المعسكر الى حفر ضخمة تحجبها عن الاعين « اكوام » من التراب . وكانت مباني المعسكر قد تحولت الى حطام . وكان بصري منذ البداية يفتش عن المكان الذي تركت فيه صديقي. ولم اجد المكان : كان قد تحول هو الآخر الى حفرة ضخمة ولم اجرؤ على ان اقترب من الحفرة . وتحدث في داخلي صوت مرير . اذا لم يكن صبري في اي مكان آخر من المعسكر ، فلن أذهب تجاه الحفرة . وفتشت في المعسكر كل مكان آخر ولم أجد صبري. وفي خطوات ذاهلة عدت لاستجيب لاوامر القائد الذي راح يعدنا لمواجهة الموقف . كنت انفذ الاوامر في ذهول ... كان الامر بشعا .. كانت تلك اول تجربة لي مع الموت . واحسست بسخف افكاري عن الحرب . وبدت لي صورة « البطل الذي يزحف فوق الرمال » مضحكة الى حد كبير . لا شك ان البندقية سلاح انساني يسمح للمحارب بان يموت في بطء وبان يجد وقتا يبرر فيه موته ويتذوق فيه معنى كفاحه وان يودع الحياة بنظرة ... ان صبري لم يجد مثل هذا الوقت . لقد تحول في لحظة الى لا شيء .. واحسست بسخط هائل يجتاح نفسي وكره عميق اسود . لماذا ؟ وعلى اي شيء ؟.. في تلك اللحظة لم اكن ادري . فقط كنت احس انني اكره كل العالم ، حتى ... نفسي .

*

لم يكن ما اشعر به في تلك اللحظة هو الخوف ... كان شيئا آخر تماما ، كنت جائعا !. وبدأت اتذكر انني لم اذق طعاما منذ .. لا أكاد اذكر. لم اكن اتصور انه من الممكن ان يشعر الانسان بالجوع في مثل هذه الظروف. لم اكد احاول القيام حتى احسست بمعدتي كأنها قطعة من الفراغ في داخلي

... كان توازني يختل ، وتهاويت فوق قطعة من الحصير التي كنت ممددا فوقها ونسيت ساقي تماما، نسيت انها ما كانت بمقدورها انتحملني لو حاولت القيام ، وتلفت حوالي : كان كل شيء كما هو ـ منذ غفوت. كانت عيناي قد الفتا الظلام وحفظتا مكان كل شيء في الحجرة الصغيرة المعتمة ، واطمأننت الى ان احدا لم يأت الى هنا . وابتسمت لسذاجة خواطري ، فلا ريب انه لو قدم احدهم الى هذا المكان لما استيقظت الى الابد ... وامتدت يدي الى البندقية المجاورة ، وحاولت ان احرك ذراعها فلم استطع . كانت صلبة تماما . لا بد ان مجرى الذراع قد تلوث بالغبار ، لكني مع ذلك كنت استعملها بسرعة جدا ونحن نصطاد جنود المظلات في الجبانة والغبار يملأ حتى عيوننا . وبدأت ادرك انني مرهق تماما . كانت البندقية تثقل على ذراعي فالقيتها جانبا وفي تلك اللحظة فقط شعرت بالخوف ... خيل الي انهم لو هاجموا هذا المكان لما تمكنت من الدفاع عن نفسي ، وبلا شعور عدت اجذب البندقية الى جواري مرة اخرى . وعاودني الاحساس بالجوع حادا هذه المرة، واحسست فمي جافا تماما . متى يأتي حسن ؟ امن الجائز ان شيئا اصابه ؟ انه امر مفزع حقا الا يأتي هذا الصبي . لا ريب انه تأخر جدا عن موعده . ومن الممكن ان يحدث اي شيء .. ان يكون حسن قد اصيب وان استمر هنا حتى اموت جوعا. وعاودني الاحساس بالخوف . انه من المخيف جدا ان يشعر الانسان انه لم يعد متأكدا من شيء ، وان الاشياء القادمة سوف تقع بمحض المصادفة . ووجدتني بلا شعور ابتسم .. خيل الي انني كائن يدعو الى الضحك . لماذا افكر بهذه الطريقة ؟ لماذا ؟ ابدو امام نفسي كفأر محاصر ..؟ ماذا حدث لي ؟ لا ريب انني اختلف تماما عن هذا الشخص الذي خاض معركة امس الاول والذي قبله.. لم اكن هكذا ابدا . وتسللت خفقة من الهواء البارد الى ارض الحجرة الرطبة من اسفل الباب المغلق، فشملتني رعشة طارئة ، وشعرت بآلام حادة تسري في ساقي مكان الجرح المضمد . وحاولت ان اتشبث بذلك الشخص الذي خاض معركة امس الاول والذي قبله ، وظل يقاتل دون ان يشعر بالدماء تنزف من ساقه .. كان قويا جدا .. وظللت اتأمله كما لو كان شخصا آخر تماما ..

✶

كان الجرح ملوثا بالتراب .. وكان كل مكان يقف فيه يلعق ذلك الجرح ... لا زلت اذكره واذكر في وضوح تلك اللحظات . كان احساسه بالجرح قد تلاشى تماما منذ بدأ يذوب في تلك الجماهير التي اندفعت في شوارع المدينة كسيل مجهول المنبع . كان يحس ان هناك كائنا ضخما يملأ شوارع المدينة . كائن ظهر فجأة وفي كل مكان . خلف النوافذ المواربة ، وراء بقايا البيوت المهدمة . في كل مكان من المدينة كان يوجد لهذا الكائن الضخم ذراع تقاتل الاعداء في شراسة . واحس انه يتلاشى ، هذا الكائن وانه أصبح مجرد ذراع في جسد هذا العملاق.. ربما كانت كانت تلكهي المرة الاولى التي احس فيها ان بور سعيد ليس مجرد اسم لمدينة ... انه شيءحقيقي..شيء ضخم .وبدأ يشعر بنوع منالامن لاحتمائه بهذا الكائن الكبير .. كانت بور سعيد كلها تقاتل .. النوافذ والحارات والابواب المواربة والاسطح وبقايا البيوت المهدمة .. واحس وقتها ان بور سعيد كبيرة جدا . كانت هناك بيوت كثيرة لا تزال ترتفع في شموخ . كان يبصرها كلما رفع رأسه . واذرع لا حصر لها تحمل البنادق . صحيح انه كان يحس بالارهاق في لحظات خاطفة ، ولكن من المستحيل ان يصيب الارهاق كل هذه المدينة ، انها كبيرة جدا .. ان بعض رفاقه يسقطون الى جواره ولكن هذه المدينة تبدو شيئا آخر غيرهم . انه لا يمكن ان تموت هكذا كما يموت البشر .. ان الطائرات تدكها منذ ايام ولكنها تبدو شيئا آخر غير البشر . واحس بحب عميق لمدينته .. كانت نظراته تذوب فوقها تضيء الظلام ودوي الرصاص لا ينقطع لحظة والاحجار تتطاير في كل مكان. وكان هناك سؤال يضيء في رأسه : ماذا بمقدور الاعداء ان يفعلوا اكثر من ذلك ؟. وفي ضوء هذا السؤال كان يدرك ان هناك فرقا هائلا بين ان تحتل مدينة وبين ان تستسلم .. حقيقة ان دبابات الاعداء تقتحم بعض الشوارع ، ولكن ماذا يعني ذلك ؟. ما دام على هؤلاء الاعداء ان يدافعوا عن كل لحظة من وجودهم . كان قويا جدا . كان يشعر ان اي قوة في العالم لا يمكن ان تهزم مدينته .ومعذلك فقد فتح عينيه ذات لحظة ليجد نفسه في تلك الحجرة المعتمة والى جواره صبي في الخامسة عشرة من عمره مهوشالشعر يلبس جلبابا قذرا ويتحدثفي صوتخفيضبعبارات مفككة :

ـ أخويا جابك هنا . علشان مفيش تفتيش في الحتة دي... و ...

ومن خلال كلمات الصبي البطيئة المتقطعة فهم ان حالة اغماء اصابتهاثناء المعركة بتأثير الجروح وان شقيق الصبي حمله الى تلك الحجرة او تلك الدكانة التي كان يبيع فيها السمك بعد ان ضمد جرحه احد الحلاقين...

ـ أخويا جلال بيشتغل صياد ولنا مركب في البحر . وكان بياخدني معاه جوا البحر نصطاد بالصنار . وفي اليوم اللي كنا نصطاد فيه كثير،كان أخويا يديني حته بخمسة ..

وظل يثرثر عن اخيه وكيف انه بعد ان يفرغ من بيع السمك يروح يشتغل في المينا.. « أصله ـ ويبتسم حسن في خجل وهو يتابعحديثه: عاوز يتجوز ، وعاوز يجيب فلوس كتير.. تعرف مين؟.. سعدية بنت المعلم حسنين صاحب قهوة المنظر الجميل ـ لما كنت اروح اوديلهم السمك في البيت كانت سعدية هي كمان بتديلي حته بخمسة ... » وينسىالصبي في غمرةحديثه عن سعدية وجلال كل شيء عن المدينة .. وعن الحرب ... ولكنه لا يلبث ان يتذكر فجأة ان عليه ان يذهب لانه يقوم بتهريب الذخيرة الى رجال المقاومة حيث ينتظره اخوه هناك ، ويصبح من مهمته بعد تلك اللحظة ان يأتي بالطعام الى هذه الدكانة ، وان يكون حلقة الاتصال الوحيدة بين هذه الحجرة وبين الحياة في المدينة التي تقاتل .. واغلق حسن الباب خلفه وادار فيه المفتاح ومنذ تلك اللحظة لم يعد !..

✶

كنت اشعر انني مختلف تماما عن هذا الشخص الذي كنت اتذكره .. كأنما اختفى هذا الشخص تماما في خطوات الصبي الذي خرج لينقل الذخيرة الى رجال المقاومة .. كنت اشعر ان ظلام الغرفة يثقل على صدري ويصبغ خواطري بلونه القاتم . ماذا حدث لي ؟ لم اكن اتصور انه من الممكن ان تتغير مشاعر الانسان بتلك الصورة . كنت عاجزا عن ان أغالب ذلك الخوف الذي بدأ يستبد باعماقي .. وتذكرت امي في تلك اللحظة. شعرت برغبة جارفة في رؤيتها .. صحيح انني لم اخبرها بسفري الى بور سعيد . ولكنها علمت بلا شك .. ترى ماذا تظن بي الآن ؟ وتصورتها في طرحة الصلاة البيضاء وهي تدعو لي . أيمكن ان يستجيب الله دعاءها ؟. واحسست بسخافة افكاري. فلا ريب ان صبري تلقى من امه دعوات اكثر ، كان ما يفزعني انه ليس بمقدوري ان اصنع شيئا . انني ملقى في هذه الحجرة كقطعة الحصير التي اتمدد فوقها ... لا ريب انه من المفزع ان يواجه الانسان الموت وهو عاجز عن الحركة .. لم اكن كذلك وانا انتقل بساقي الجريحة خلف بقايا البيوت المهدمة. لماذا تأخر

حسن هكذا ؟. هذا الصبي اللعين . كنت اود ان اراه ليحدثني اكثر عن اخيه الشاب الذي أنقذ حياتي . ولكن عودة هذا الصبي اصبحت تعني لي شيئا اكثر ، اصبحت تعني كل حياتي . تعني انقاذي من هذا الخوف اللعين الذي يذوب في ظلام هذه الغرفة .. هذا الصبي القذر . ترى لو قابلته قبل هذه اللحظة في احد شوارع بور سعيد ، فماذا كان سيعني بالنسبة لي ؟ : لا شيء . وتذكرت ان في حياتنا اناسا كثيرين قد لا نشعر بمجرد وجودهم ... هذا الوجود الذي ينتظر فرصة كي يكتسب معنى جديرا به ..! وتذكرت كلمات صديقي صبري : « اننا حين نواجه الموت نعيد تقديرنا للاشياء والناس ».

ومرة اخرى عادت موجة البرد تكتسح الحجرة الصغيرة . ان ساقي تؤلمني اكثر . من المستحيل ان تأتي امي الى هذا المكان . ان احدا لا يستطيع لي شيئا سوى هذا الصبي .. و .. وفجأة سمعت وقع خطوات وصوت مفتاح يدار في الباب . ولم تهدأ ضربات قلبي قبل ان ابصر حسن امامي . كانت عيناي قد الفتا الظلام وامكنني ان اميز لاول وهلة سمات الحزن على وجه الطفل . وفي عينيه كانت تلمع آثار دموع.

ـ ايه يا حسن . مالك . حصل ايه ؟

ـ أخويا ..

ـ ماله ؟

ـ مات .

وللحظات لم اتمكن من ان افتح فمي بكلمة ..

ـ لكن مات ازاي يا حسن ، وفين ؟

ـ ما اعرفش . الناس جابوه البيت وهدومه كلها دم. وكان بيتكلم. قال لي ما تخافش .. وروح للراجل اللي في الدكان ... وهو ..

ولم يكمل حسن حديثه فقد اجهش بالبكاء ..

وجذبت الصبي من يده وضممته الى صدري ورحت اهدئه .. كنت احس ان كلماته تخترق صدري في عنف . وعجزت عن ان اتكلم . وفي تلك اللحظة سقطت من ملابس الصبي صرة صغيرة كان يلف فيها الطعام الذي احضره لي. ووجدتني افك الصرة واضعها امام الصبي .

ـ انت جائع بلا شك . كلْ . سوف آكل معك . لا تبك . لن اتركك...

وجلس الصبي . ومد يدا مترددة الى الطعام ثم اكل .. كان جائعا جدا . اما انا فقد فقدت رغبتي في الطعام . كنت ارقب الصبي وهو يأكل ويجفف دموعه احيانا بظهر يده واحيانا بشفتيه . كنت اتأمل ملامحه لاصنع صورة جلال الذي انقذ حياتي ومات دون ان اراه .. وسرى في جسدي تيار حاد من القلق . يجب ان اغادر هذا المكان . يجب ان يجفف ذلك الجرح اللعين . كنت احس بقوة عجيبة تمور في جسدي المرهق . كنت اشعر انني اتحول الى ذلك الشخص الآخر القوي الذي كان يقاتل في شوارع المدينة كانما عاد ذلك الشخص في خطوات ذلك الصبي الذي جاء يبحث عن بديل لاخيه الذي مات .. هذا الموت .. يا له من ثمن ! انه شيء رهيب حقا . ان بمقدورنا ان نقتسم البؤس والارهاق او العمل ، ان نتحمل معا اي شيء .. اما هذا الموت ، فان الموتى وحدهم هم الذين يدفعون كل هذا الثمن .. وبدا لي ان كل ما يمكن ان افعله لا يساوي شيئا بالنسبة لما فعله صبري وجلال . لم يكن واحد منهما يعرف الآخر ، ومع ذلك فقد فعلا نفس الشيء . كل على طريقته . كنت أشعر كأنما هناك اتفاق سابق بين كل هؤلاء الذين يموتون من اجل حرية بلادهم فجميعهم في كل بلاد العالم يصنعون نفس الشيء . ربما كان هذا وحده هو الدليل القاطع على ان الحرية هي القيمة الوحيدة في العالم التي لا يختلف حولها البشر .

سوف يخرج الانجليز من بور سعيد . بدأت أشعر ان هذه القضية حقيقية تماما ، كما ان موت صبري وجلال اصبح امرا حقيقيا . واحسست بقوة هائلة تهز كل نفسي . لم تكن قوتي بحال. خيل الي ان حياة صبري وجلال لم تذهب بعيدا، وانما عادت لتتسرب في جسدي المنهك ، لتقاتل بكل ما تبقى من أسلحة ..

كان حسن لا يزال يملأ فمه بالطعام وعيناه منداتان بالدموع . اما انا فقد كنت اشعر انني اتحول الى شخص آخر تماما ... لم اكن اتصور انه كانت تكمن في داخلي كل هذه القوة .. يا له من مخلوق ذلك الانسان: لا يكتشف قواه الكامنة الا من خلال بعض الاحداث والمواقف ، ولكن اي أحداث ومواقف :

هناك في الحياة اشياء كثيرة يمكن ان نحددها وان نؤكد موقفنا حيالها ، فبمقدور انسان ما ان يرفض ثروة مفاجئة او يضع حدا لقصة حب او ينفق جزءا من حياته عبدا لفكرة او لشخص ... ولكننا حيال تجربة واحدة ، تلك هي التجربة التي نواجه فيها الموت بنوع من الاختيار ، لا يمكن ان نحدد شيئا او ان نؤكد موقفا لان المشاعر نفسها والافكار تنبعث من داخل التجربة وتتحدد بشكل نعجز حتى ان نحدس به ونتساءل دائما ونحن داخل التجربة ، بل وحتى بعد ان نخرج منها ، كيف كان ذلك ؟ . واحيانا قد لا نظفر بجواب.

القاهرة

محمد ابو المعاطى أبو النجا

في السوق

موتى بلا قبور

البغي الفاضلة

مسرحيتان

ترجمة الدكتور سهيل ادريس والمحامي جلال مطرجي

في سلسلة : روائع المسرح العالمي

منشورات دار الآداب

ص. ب. ٤١٢٣